تصوف الزوايا والهويّة الجزائرية
مقاربة في المظاهر والتجليات الطرقية

الدكتور علي كبريت
جامعة ابن خلدون
تيارت

تمهيد :

موضوع المداخلة كما هو واضح في العنوان يتضمن ثلاثة مواضيع جزئية، موضوع «الزوايا» وموضوع «الهوية» وموضوع «الطرقية»، ولكل موضوع من هذه المواضيع آفاق واسعة من الإشكاليات الثقافية الحضارية التي لا تكاد تنتهي إلى حدود قارّة يسلّم بها التفكير تسليما نهائيا، ذلك أن هذه الملفات (الثقافية/ الحضارية) مرتبطة بشبكة من العلاقات المعقّدة والمتداخلة في نسيج مجتمع ما يزال يبحث عن (هويته) من خلال مؤسسة (الزوايا) بما هي مؤسسات (طرقية) صوفية قبل أي شيء آخر، ونقصد بالمجتمع الجزائري ذلك الذي يرتبط بهذه الملفات ارتباطا إشكاليا و يحتاج إلى تفسير واقتراح حلول بعد تفكيك بناه ورصد مقومات الأنظمة والأنساق فيه لفهم أنظمة العلاقات بين عناصر مركّبه العضوي بما هو كيان له كينونته الخاصة.وسأحاول أن أقارب

كل قضية على حدة في مسار يتجه نحو الموضوع العام للمداخلة لنصوغ خلاصة للمشهد الإشكالي الذي يتركز حول موضوع «الهوية» ومؤسسة «الزوايا» والممارسات «الطرقية» داخلها ليتجلى من خلال ذلك مدى التأثرات الاجتماعية به في أساليب العيش وأنماط الطبائع والأذواق وأشكال الحياة بالنسبة لـ « الإنسان الجزائري»

الهوية والزوايا:الهوية موضوع أفرزته أوضاع حديثة استفزت التفكير فيه أنواع الصراع الحضاري لمختلف الحضارات، حيث تبلور كإشكالية عندما حدث ذلك الاحتكاك الاستعماري بين بلدان مستعمرة (بكسر الميم قبل الراء) وبلدان وشعوب مستعمرة (بفتح الميم قبل الراء)، فلم تظهر هذه اللفظة الجديدة «للهوية» إلا حديثا في المعجم السياسي والمجتمع العربي» (1).يقول عزيز العظمة معرّفا مصطلح «الهوية» : « على أن حدّ الهويّة (بضم الهاء) (Identité) يترجم حرفيا (بالموجود هناك l’etre-cela) ممّا يسمح بأن يقارن مقارنة غامضة مع المصطلح الهيجري (Dasein) « (2) ،فالهوية هنا تعني الكينونة في الوجود أي أن (الهوية) مفهوم أنطولوجي مرتبط بالوجود وفي المقابل هناك 'اللاوجود» الذي يرتبط عضويا من حيث المفهوم والتصوّر الفطري (بلا هوية) ! وكأنني أفهم هذا الطّرح بأنه

يعني مسألتي «الوجود» أو «اللاوجود» !، وبناء على هذا التحليل أخذت»الهوية» مسار»اكون» (فلا يكون غيري) أو»يكون غيري»(فلا اكون انا) أي أخذت بعدا مصيريا ساهم في غريزة مقاومة الآخر لتأكيد الذّات وحضور الأنا في بعدهما -(المقاومة والحضور)- الأنطولوجي، ومثال ذلك حاصل في الواقع التاريخي للجزائر، حيث كان استعمارها استعمارا «هوياتيا» من قبل فرنسا على قاعدة (L'Algérie française) في محاولة لمسح الجزائر من الوجود، ولكن غريزة البقاء قاومت المسح والمسخ بتأكيد وجود الذات الجزائرية ككيان قائم بذاته وعلى كافة المستويات بدءا من المستوى التقليدي من خلال الحياة التقليدية مرورا بأشكال أخرى مقاومة مثل التعليم في الزوايا والكتاتيب والإعلام والهجرات... رغم محدودية فعّالية هذه المستويات على تفاوتها.

وهنا يستوقفنا البعد التقليدي في ممارساته الشعبية البسيطة التي مثلت تجلّيات للرفض والممانعة عن الذوبان في الآخر أو الانتهاء من الوجود، حيث الشعور «بالهوية» هو شعور مضمر لدى فرد لا يعرف القراءة ولا الكتابة ولا فلسفة عالمة، إنما فلسفته هو المحافظة على التقاليد والأعراف والممارسات الدينية التقليدية والبسيطة، ولكنها كانت فعّالة في الحفاظ على الكينونة

المستقلة بذاتها وفق مبدأ التوازي المفارق بين كيان اسمه (الأنا) وكيان اسمه (الآخر).

والسؤال المطروح في هذا السياق هو: من أين كان يصنع الجزائري وعيه المضمر عن كينونته وهوّيته كجزائري مسلم وعربي- أمازيغي؟ أو بعبارة أخرى:

ما هي مصادر وعيه المضمر بـ(أناه) ضدّ (الآخر) المستعمر؟. إن النخبة التي كانت تمثل معين ثقافة «الإنسان الجزائري» الذي دمرّت مؤسساته الحضارية العالمة والرسمية كانت قليلة جدا متمثلة في بقايا علماء (الزوايا) على محدودية وعيهم الفكري والسياسي والثقافي بعد فترة المقاومات الشعبية التي ثبت ضعفها العسكري فاستهلكت طاقاتها النخبوية في جهاد مرير طويل فلم تبق منها إلاّ تلك البقية الباقية التي أشرنا إليها على تخلفها الحضاري، حيث بقيت حبيسة (زوايا) دجّن الاستعمار الكثير منها من خلال برامج خطيرة لاستيعابها وإعدامها حضاريا وثقافيا ولغويا، قلت : أن هذه النخبة كانت تمثل « الإنتلجسنيا» المتنوّرة للإنسان الجزائري مع كامل ضعفها ومحدودية فعّاليتها، حيث كان الذي يحفظ القرآن الكريم - مجرد الحفظ دون معرفة بالنحو ولا غيره من العلوم البسيطة المكملة- يعتبر عالم المجتمع ومرجعه في الدين والدنيا معا !!.

في هذا المشهد المتردّي، شديد التخلّف كان مدّاح القرية في الأسواق وشاعر الملحون في المجالس يؤدّي دور النخب المؤثرة في فعل تنويري خاصّ رسّخ مفهوم الهوية المضمر لدى الإنسان الجزائري الأمّي المتخلف أثناء مرحلة الاستعمار، ولكن مدّاح القرية وشاعر الملحون وغيرهما من طبقة «الانتلجانسيا التقليدية» للمجتمع الجزائري المستعمر كانت مرجعيته تلك الزوايا بمشايخها الضعاف - كما أشرنا سابقا – الأقوياء بمؤسساتهم التي كانت تحتل مركزا بارزا خوّلها سلطة ثقافية مطلقة كانت عناصرها الثقافية تتسلّل عبر ذلك المدّاح وذلك الشاعر رغم الدراسات الأثنولوجية والأنثروبولوجية الاستعمارية التي كانت ترصد تحركات الزوايا ومشايخها وشعراءها ومدّاحيها وتترصّد كل أنشطتهم لاحتواءها وتدجينها (3).

2-الهوية والطرقية:

كنا ركزنا في «الهوية والزوايا» على مسألة المفهوم المرتبط بكينونة الأنا مقابل الآخر في صراعهما الثقافي والحضاري على مسرح (الزوايا) سرج الإنسان الجزائري ومصادر تنويره التقليدي المتخلف المرصود استعماريا من قبل الأنثروبولوجيا والممسوخ ثقافيا من قبل شاعر الملحون ومدّاح الأسواق.

ولكن السؤال المطروح في هذا السياق هو كالتالي:

ما هي طبيعة الثقافة التنويرية لدى مؤسسات الزوايا؟ أو بعبارة أخرى: ما هي العناصر الثقافية المكونة لمركب المعرفة التنويرية لدى نخب الزوايا؟.

والإجابة واضحة هي :الثقافة «الطرقية»، فهذا السؤال وتلك الإجابة تحيلان وظيفيا إلى مقاربة العناصر الطرقية التي تسلّلت إلى الممارسة الشعبية فأصبحت عناصر تكوينية لملامح الهوية: ذلك أننا نتصوّر تجليات التصوّف الإسلامي في ثلاث مستويات:

1- التصوّف الفلسفي العالم: نظريات التصوّف، وعلم التصوّف النظري.

2- التصوّف الطرقي: ممارسة المريدينية والفقراء والإخوان للتصوّف العملي في مدارج السلوك في طرق مختلفة.

وهما الجانب المعرفي العالم .

3- الممارسات الشعبية للتصوّف الطرقي: وهو الانبثاق المنزاح عن الممارسة الطرقية في شكل تقاليد وعادات وأعراف شعبية.

وهنا يمكن أن نؤكد من منطلق مبدأ الثقافة المهيمنة – la culture dominante – أننا أمام شكلين من التصوّف في الإطار الثقافي – وفق المفهوم الأنثروبولوجي للثقافة هما:

- ثقافة عالمة ------------ تجلياتها الصوفية متمثلة في التصوّف (الفلسفي- الطرقي) العالم
- ثقافة شعبية ----------- تجلياتها الصوفية هي تلك الانحرافات الشعبية لعالِمية التصوّف الطرقي.

وبالتالي فإن التجليات الاجتماعية للتصوف الطرقي (العالِم منه والشعبي) هي العامل المهيمن على ملامح شخصية الإنسان الجزائري، من حيث استلهامه للثقافة الإسلامية التقليدية لديه عن ثقافة الزوايا الطرقية اذ يخضعها لصيغة ممارساته هو كإنسان أمّي يدرك إدراكا مضمرا أنه بها يكون كيانا مستقلا عن الآخر، أي يضع من خلاله «اناه» مقابل «الاخر» في يومياته على كافة المستويات اللغوية اللهجية التواصلية وتعبداته الطقوسية وهندامه وأسماء أفراده ومخيلته تجاه الكون والإنسان والخير والشرّ... ففي كل مفاصل الحياة يعيش الإنسان الجزائري جزائريته، بتداولية مستمرة لكافة

عناصر مركّبه الثقافي الذي هو ثقافته الحيّة. فالإنسان الجزائري في وضعه الاستعماري كان إنسانا فولكلوريا بامتياز، ومن ثمّ أدرك الاستعمار أن فهمه له لا يتم عبر فهم موطأ الإمام ما لك ولا عبر رسالة أبي زيد القيرواني ولا عبر المرشد المعين لابن عاشر... لأن الممارسات الحيّة لهذه المصادر هي ممارسات منزاحة عن أصالتها في تمثلات شعبية أخذت طابعا فولكلوريا، يقول أريكسون عن الثقافة التقليدية: « قد يوجد في جميع الفئات الاجتماعية مقدار معيّن من الثقافة التي تكون موروثة عادة، وتكون قد تم تمثّلها وهضمها على المستوى الفردي على الأقل، وهو المقدار الذي يمكن اعتباره تقليديا، والثقافة الشعبية هي نفسها في الواقع الثقافة التقليدية الحيّة» (4).

فالثقافة التي يتوارثها الفرد عن الأسلاف ليست دائما ثقافة تقليدية Traditionnel ولكنها قد تكون ثقافة عالمة بيد أنها لا تتحول إلى تقليدية إلا عبر مراحل تاريخية تشكل وسيطا يحوّلها إلى ممارسات تقليدية تهيمن على تفاصيل حياة المجتمع فتصبح هي الثقافة الحيّة، والثقافة العالمة تصبح ثقافة النخب في أبراجهم المتعالية المحدودة بعددهم القليل أو الذي يكاد يكون

معدوما – مثل الجزائر المستعمرة – وتشكل في الأخير عناصر مركب شخصيته وهويتها.

3- نماذج من التجليات الاجتماعية لهوية المجتمع الجزائري:

- الأولياء والأضرحة:

إن الارتباط الثقافي والروحي بين الولاية وضريح الولي الصالح وبين الطريقة واضح ذلك أن الطريقة هي تأسيس تعبّدي قائمة على أذكار و أوراد وأساليب خاصة من طرف الشيخ المؤسس المأذون في ذاك ،و أن بعض الشيوخ هم وسائط بين المريد والشيخ، وثمة مراتب في المشيخة تبدأ من مقام الولي المؤسّس إلى الشيخ الوسيط ثم المقدّم ... والذين تقام على مقابرهم قباب وأسوار وتحوّل إلى مزارات للتبرك وقضاء الحوائج وإقامة الأطعمة والمحافل والولائم... في ممارسات طقوسية خاصّة، تتحوّل على مرّ السنين إلى عادات وتقاليد لها خصوصية مميّزة في الأداء وتحكمها ضوابط يتعارف عليها الناس فيما بينهم ويسلّمون بها تسليمهم للدين والرسول (صلى الله عليه وسلم) والأولياء والقرآن.

- **الأسماء والألقاب:**

ويمكن اختزال هذا الموضوع في شخص الـولي الصـالح «سيدي عبد القادر الجيلالي» كأنموذج، إذ لا يكاد يخلو بيت من بيوت الجزائريين إلاّ وفيه اسم «عبـد القـادر» أو أحـد النعـوت التي نسبت إلى اسمه حيث أحصيت بعضها في القائمة التالية:

- لعرج :هـو الـذي بـه عـرج في إحـدى قدميه،فيبـدو في مشيته أعرجا.

مولى بغداد (البغدادي) :في معتقدات العـوام أن الـولي هـو سلطان المدينة القائم بكل شـؤون النـاس فيهـا حتـى وهـو ميت لذا فهو مولاها و «صاحبها».

- الجيلالي : نسبة إلى بلدة سيدي عبد القادر (جيلان).

- بخيرة :تحوير لبن خيرة: نعت لأمه التي تدعى أيضا أم الخير.
- قدّور: صيغة للتحبيب مشتقة من عبد القادر.
- قويدر: (صيغة تصغير لغـرض التحبيـب) وارتبطـت بمعنى الزهد والفقر المادي فانحرف المعنى مـع مـرور الـزمن إلى

المعنى القدحي (إذ أصبح يحيل إلى شرور الفقر المدقع والفاقة الشديدة)بعد أن كان نعتا تحبيبيا دالا على صلاح في السلوك من خلال الزهد في الدنيا الفانية.

- بودربالة :(«الدربالة» هي اللباس المرقع البالي و التي هي « خرقة» المنصوفة التي تلبس للصوفي للدلالة -رمزيا- على الوفاء بالعهد المتضمن الزهد في الدنيا وتطليقها وقهر لخيلاء النفس وكبرها...
- بوعلام :» العلام» هو قطعة من القماش الأخضر يتبرك بها توضع على ضريح الولي أو تعلق على الصدر أو يتعمم بها ... ،ولعل لونها رمز دال على أهل الجنة .

ولا يخفى على أفهامنا ما للأسماء من تأثير على هوية الشخص والمجتمع ، وهنا يثبت تعلق الإنسان الجزائري بشخصيات الأولياء وحبّه لهم ، إذ يسمّي الجزائريون أولادهم – فلذات أكبادهم- بأسماء هؤلاء الأولياء ، كما يمكن ملاحظة التأثير الطرقي على أسماء الأفراد من خلال اسم «المقدم» الذي يسمّى به كثير من الأبناء. و» المقدم « هو من يتقدم شؤون الضريح أو الزاوية، وهو بعد الشيخ ((شيخ الزاوية أو

الطريقـة)) في المرتبـة حيـث بعـده تـأتي مرتبـة (الخـدّام) وهـم أحباب الشيخ الولي – إن كان حيا – أو صاحب الضريح .

و(الخدّام) هنا لا تطلق بمعنى (العبيد) وإنما بمعنى أحباب الشيخ الولي .

ويشبه اسم «المقدم» في شيوع إطلاقه اسما على الأبنـاء اسم «الشيخ» أو «ابن الشيخ» ولكل زاوية شيخها المقصود بهذا الإطلاق إذ لكل قبيلة أو «عرش» زاوية لجد لهم أو شيخ حبيب.

- **التقسيم القبلي:**

مادامت الطرق الصوفية تنشأ وتنمو في رحـم الزوايـا وبـين أدي الأولياء، فإن الولاء الطرقي يقسّم القبائل و»الأعـراش» بحسـب هـذا الـولاء ،إذ يـتم ذلـك وفـق تصـوّر تجـاوري ومتراتـب (أفقـي وعمودي)؛ فعلى المستوى الأفقي تعتبر كل قبيلة أو «عرش» – نسبيا -إتباع لطريقة صوفية تنتسب إليها فيقال: هؤلاء تيجانيون وأولائـك قادريون، والآخـرون سنوسـيون... بينمـا علـى المسـتوى العمـودي فهناك الولاء الإثـني والعصـبية العرقيـة المبنيـة علـى مفهـوم النسـب الطيني مقابل النسب الروحي السابق، ومن تجلياته انقسام القبائـل إلى أشراف ومرابطين وغير أشراف...

- **تجليات أخرى:**

- الهندام: التشبه بالأولياء والمشـايخ في لـبس البرنـوس والتعمّم واختيار لوني الأبيض والأخضر لبعض أجـزاء اللبـاء أو كلّه...

- أنواع الأطعمة ونمط الغذاء: القهوة كانـت تـدعى في الكثير من المناطق بـ «الشاذولية» ..... من الطريقـة الشـاذولية التي صادف شيوعها شيوع اسـتهلاك القهـوة وارتبـاط شـرب القهوة بهم حتى سميت القهوة باسمهم «الشاذولية»، بل هناك من يقسم بها « وحق هذه الشاذولية»، بل ويتداوون ويتعالجون بها تبّركا.

ومثل القهـوة نـوع مـن طعـام الكسكسـي أخـذ طابعـا طقوسيا يسمى في عرف العوام ومعتقداهم «البربوشـة» يتـبرك بأكله طلبا للشفاء ، حيث يحضر في الزاوية .

- القسم بأسماء الأولياء والشيوخ، بـل بعـض المنـاطق يقسمون بكتب المشايخ كأن يقال :»حق كتـب سـي قـدّور» –مثلا- .

- الدور الاجتماعي في المصـالحات ومحاربـة المنازعـات القبلية والأسرية داخـل المجتمـع مسـتغلّين مـوقعهم المحـترم في

الأوساط الاجتماعية ممّا يعطي ملامح معينة توصيفية لطريقة عيش وتعايش الجماعة القبيلة في الجزائر.

خلاصة:

انطلقت المداخلة من تصوّر إشكالي متعلق بمفهوم «الهوية» وارتباطها بمؤسسة «الزوايا» وانبثاقها عن «طرقية» هذه الزوايا، حيث صاغها الإنسان الجزائري في ثقافته الشعبية التقليدية في انزياح فولكلوري عن عالِمية التصوّف الطرقي.

وقد تم تركيز شرح الأبعاد الشعبية والفولكلورية التقليدية لعناصر الهوية كما مارستها الطبقات الشعبية في تجليات واضحة في أساليب العيش وأسماء الشخاص والأماكن ومظاهر الهندام والسكن...

ذلك أننا نقدر بأن الذي يرسم ملامح هوية المجتمع هو هذه المظاهر والتجليات كثقافة مهيمنة صنعتها ظروف وملابسات ثقافية وسياسية واجتماعية تاريخية ساهمت فيما يعرف في التصنيف الأنثروبولوجي الفرنسي الاستعماري بـ «الإنسان الجزائري» (5)، في مقابل «الإنسان المسلم» أو

«الإنسان العربي» أو «الإنسان المغـاربي»...، هـذه التصـنيفات مضبوطة بحسـب المعـايير الثقافيـة ووفـق المفـاهيم والنظريـات الأنثروبولوجية الدقيقة لدى المتخصصين.

علـى أن مبـادئ التصـوّف العـام الـتي أخـذ التصـوّف الطرقي منها اختلافاته وتياراته هي الأصل الـذي صـيغت منـه ثقافة شعبية جزائرية (التي انبثقت من المرجعية الطرقية) إذ نمـت وتطوّرت في أحضان مؤسسات الزوايـا، هـذه المؤسسـات الـتي كان يرضع منها «الإنسان الجزائـري» تكوينـه الثقـافي ووضـعه الحضاري، لنقول بأن التصوّف بشكل عام والتصـوّف الطرقـي بوجه خاص هو صانع الهوية في الجزائر.

الهوامش

[1]- مؤلف جماعي: مفاهيم عالمية (الهوية) من أجل حوار بين الثقافات، ترجمة عبد القادر قنيني، لبنان – المركز الثقافي العربي، ط1/ 2005، ص:.14

[2]- المرجع نفسه، ص : .17

[3]- ينظر: عبد الحميد بورايو: الأدب الشعبي الجزائري، الجزائر، دار القصبة، د.ط / 2007، ص: 7 وما بعدها .

[4] – أحمد بن نعمان: هذه الثقافة، الجزائر، دار الأمة، د.ط / 1996، ص: .288

[5]- ينظر: فيليب لوكا، وجين كلود فاتك: جزائر الأنثروبولوجيين
Philippe Lucas, Jean-Claude Vatin, L'Algérie des anthropologies, François Maspéro, Paris 1975.